قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير بن أبي سلمى: تحليل الأسلوب الأدبي

محمد بريبادي
كلية الأدب، الجامعة «سونن كاليجاكا» الحكومية الإسلامية - يوكياكرتا، إندونيسيا

الملخص

يحاول الباحث في هذه الورقة أن يرى أهمية قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير بن أبي سلمى في ضوء تاريخ حضارة الإسلام، خصوصا في عصر الانقلاب من الجاهلي إلي الإسلام المشهور بعصر المحضرمين. وحلل صاحب البحث هذه القصيدة مركزة على وجهة عناصر الأساليب وبيان شيء من خلفية ظهورها ليشرف بها القارئ المعرفة التناسبية بين لأساليب المستخدمة وأحوال الشاعر ومقامه التي أسست قصيدته. فيرى أن في هذه القصيدة قيمة تصدر من التجربة الدينية والشعرية الفنية التي تغير فلسفة حياة الشاعر من الجاهلية إلى الإسلام، فكانت هذه القصيدة تنبعث من الانفعالات النبيلة والفكرة القويمة المعبرة بالشكل الفني الممتاز الجليل حتى صارت قصيدة رائعة عالية خالدة سليمة المعاني والقضايا والشكل.

ا. مقدمة

سارت أشعار العرب عبر التواريخ وتطورت مع تطور الأحداث الإسلامية والعربية، فكانت جزءا من الأدب العربي المتقدم. وهي منذ صدر الإسلام وقعت عليها المناقشة في إبطال الشعر وتصحيحه. والنقطة القاطعة لهذا الموضوع هي من جهة الأغراض يعنى أن إبطال الشعر وقبوله موقوف علي أغراضه. وهذه المقالة ستبحث فى القصيدة المقبولة من جهة أغراضها وهي التي قصد بها شاعرها، كعب بن زهير بن أبي سلمى. وهي إحدى ثمرة القصائد المقبولة من عصر صدر الإسلام المشهور بعصر المحضرمين.

ذكر الإسكندري ستة أغراض الشعر في عصر المحضرمين منها المدح. وقد علم هذا المدح من أغراض القصائد المشهورة في عصر صدر الإسلام ويصبح من أهم الدعائم

لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاء والولاة والإشادة بعظمتهم.[١] وللمدح أنواع منها المدائح النبوية أو القصائد النبوية يعنى قصائد المدح المخصوص الغرض للنبي الممدوح وتصبح هذه نوعا من أنواع القصائد المشهورة في تاريخ المجتمع الإسلامي وقد اهتموا بها كثير من العلماء والأدباء وألفوا قصائدهم وكتبوا في ديوانهم مثل ديوان البرزنجي والدباع والبردة للبوشيري.[٢] والقصائد النبوية المشهورة التي تلقي النبي بقصد المدح منها القصيدة ''بانت سعاد'' التي ألقاها كعب بن زهير النبي. وإن ''بانت سعاد'' بجانب كونها من المدائح النبوية لهي قصيدة ذات مميزات في الشكل والمضمون إذ أنها أسست على القوانين الأدبية الأسلوبية والقيمة الاجتماعية المسلمة الجديدة في ذلك العصر.[٣] ففي الشكل مثلا فإنها قصيدة تستلزم بنظام الوزن والقافية والألفاظ التي تشير إلى أنها نوع من القصائد العربية التي تتطور في عصر النبوة الذي هو عصر امتداد من العصر الجاهلي إلى عصر الإسلام. ومن حيث المضمون فإنها تحتوي على تجربة الحياة الشعرية الاجتماعية الخاصة عند كعب بن زهير، شاعر هذه القصيدة، عند ما يبحث عن حقيقة النور الإلهي. فمجيء الإسلام في المجتمع العربي عنده سبب قلق قلبه لمواجهة بحر الحياة الاجتماعية. فكأن فلسفة الحياة الاجتماعية الجاهلية التي عرقت في نفسه ورسخت منذ نشوئه في العصر الجاهلي تزلزلت بمجيء هذا الدين الجديد. كأنه سأل: لماذا وقع. و لماذا ترضى نفسه عن فلسفة الدين الجديد بدلا من فلسفته الجاهلية.

وبانت سعاد كانت قصيدة تعبر الشاعر إجابة عن قلق نفسه. وكأن كعب بن زهير أجاب عن قلق نفسه بهذه القصيدة فهي أجابت بهذين السؤالين عن قلق نفس الشاعر وبدل فلسفة حياته الاجتماعية والدينية. ومن جهة أخرى كأن هذه القصيدة تشير إلى أن الإسلام من خلال شريعته ومجتمعه لا يرفض كل الأشعار ولا كل الشعراء كما يزعم كثير من الناس متأسسا على الآية الكريمة.[٤] وتأكد ذلك أن هذا الشاعر مازال شاعرا منتجا حتى دخوله في

---

[١] أحمد الاسكندري ومصطفى عنان، *الوسيط في الأدب العربي وتاريخه* (مصر: دار المعارف، ١٩١٣)، ص. ١٤٢؛ وهو ذكر ستة أغراض الشعر في عصر المحضرمين: نشر عقائد الدين، التحريض عن القتال، الهجاء، وصف القتال، المدح، واستعماله في النسيب والغزل والعفيف.

[٢] يستخدم جمهور المسلمين الإندونيسيين قصائد المدائح النبوية مثل الدباع والبرزنجي والبردة للبوشيري في الحفلات والذكريات بمناسبة ذكرى المولد النبوي وحفلة العقيقة وحفلة ختم القرآن.

[٣] يعني عصر الانقلاب من الجاهلي إلي الإسلام المشهور بعصر المحضرمين ويمتد حتي عصر صدر الإصلام

[٤] وهي فسرت الآية: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ. وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا

الإسلام. ويصبح شاعر هذه القصيدة ويعيش في عصري المجتمع العصر الجاهلي والإسلام فسمي بشاعر المحضرمين وقصيدته، بانت سعاد، من إحدى قصائده التي قالها أمام النبي من جهة وأمام مجتمعه من جهة أخرى. وفيها مليئة بالأغراض الشعرية الاجتماعية المعروفة في ذلك العصر غير أن اعتذاره ومديحه فيها للنبي أصبحا غايتي الأغراض المذكورة.

ويدل على أهمية هذه القصيدة اهتمام كثير من العلماء بها. فقد كتب الإمام أبو سعيد الحسن السكري أن أشعار كعب كثيرة منوعة لا ينقص عددها من خمسين وستمائة بيت. ووضع بانت سعاد في أول ديوانه. لعل هذا الوضع لكونها من أول قصائد قالها.[٥] قال طه حسين: فلم يكد يبقى لكعب بن زهير إلا بانت سعاد على كثرة ما عبث الرواة بها وإضافتهم إليها. في الواقع قد انتشرت هذه القصيدة عند العلماء من الرواة والأدباء. وربما يحسن بي أن آتي أسماء بعض الرواة والعلماء الذين يهتمون بهذه القصيدة كما يلي:

١) ابن هشام، هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري توفى ٢١٨ هجرية. وقد رواها عن ابن إسحاق محمد بن إسحاق بن يسار بن حيار المدني القرشي. ولد سنة ٨٥ هجرية وتوفى ١٥٣ هجرية. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة. وقد كتبها في السيرة النبوية المشهورة.

٢) أبو سعيد السكري. هو الحسن بن الحسين بن عبيد الله بن عبد الرحمان بن العلاء بن أبي صفرة بن المهلب العتكي المعروف بالسكري. ولد ٢١٢ هجرية وتوفى ٢٧٥ هجرية. قال أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري حدثني الحسن بن هارون المنقري عن زياد بن عمرو البكائي عن محمد بن إسحاق. وقال: حدثني محمد بن حميد وإسحاق بن إبراهيم عن سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق. وكتبها في شرح ديوان كعب بن زهير.

٣) أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأصفهاني أو الأصفهاني. ولد ٢٨٤ هجرية وتوفى ٣٨٦ هجرية. وقد رواها عن أحمد. قال: أخبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا:حدثنا عمر بن شبة. قال: حدثني إبراهيم بن المنذر الحزامي. قال حدثني الحجاج بن ذي الرقيبة بن عبد الرحمان بن مضرب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى عن أبيه عن جده. ثم كتبها في كتاب الأغاني المشهور.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ؛ القرآن، سورة الشعراء (٢٦): ٢٢١-٢٢٧.

[٥] أبو الفرج الأصفهاني ، *كتاب الأغاني*، الجزء السابع عشرة، ص. ٨٦.

٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري. ولد ٥٥٥ هجرية وتوفى ٦٣٠ هجرية. وقد رواها عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي ولد ٣٦٨ هجرية وتوفي ٤٦٣ هجرية. وعن محمد بن يحي بن إبراهيم منده بن الوليد بن سنده بن بطة بن استندار فيرزان بن جهار يخت العبدي مولاهم الأصفهاني أبو عبد الله جد الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق روي عن لوين وأبي كريب وحلق. وحدث عنه الطبراني وغيره وتوفي ٣٠١ هجرية. وعن أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن الأصفهاني ولد ٣٣٦ هجرية وتوفى ٤٣٠ هجرية. ثم كتبها في أسد الغابة في معرفة الصحابة.

ولم يقف الاهتمام بهذه القصيدة عند الرواة بل جاوزهم عند العروضيين والشارحين فبعضهم شطرها وخمسها وعارضها وولع بشرحها فريق من كبار الرجال. ومن الذين شطروها عبد القادر سعيد الرافعي وأول تشطيره[٦]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول والنوم والشهد مقطوع وموصول
والجسم بعد سعاد مدنق وصب متيم إثرها لم يفد مكبول.[٧]

ومن الذين خمسوها شعبان بن محمد بن داود المصري المتوفى سنة ٨٢٨. قال فيه:

قل للعواذل مهما شئتموا قولوا فليس لي بعد من أهواه معقول

ناديت يوم النوى والدمع مسبول
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول.[٨]

ومن الذي عرضوها ابن نباته المصري ومطلع قصيدته:

---

[٦] التشطير هو أن يعتمد الشاعر إلى أبيات لغيره ثم يجمع إلى كل شطر منها شطرا يزيده عليه عجز الصدر وصدر العجز. والتخميس هو أن تقسم فيه المقطوعة من القصيدة إلى مجموعة وكل مجموعة خمسة أشطر ذوات قافية متحدة (فؤادي عزيز، *العروض والقوافي*، ص: ٥١)

[٧] زكي مبارك، *المدائح النبوية في الأدب العربي*، مصر: دار الكاتب العربي، ص. ٢٦.

[٨] مبارك، *المرجع السابق*، ص. ٢٦

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل.[٩]

وابن سيد الناس اليعمري. واسم قصيدته عدة المعاد في عريض بانت سعاد. ومطلع قصيدته:
قلبي بكم يا أهيل الحي مأهول وحبله بأماني الوصل موصول.[١٠]

ومن الذي شرحوا بانت سعاد مسعود بن حسن بكر القنائي واسم شرحه الأسعاد لحل نظم بانت سعاد. وأحمد بن محمد اليمني واسم شرحه الجوهر الوقاد في شرح بانت سعاد. وابن هشام الأنصاري وشرحها عطاء الله بن أحمد مرتين. واسم الشرح الأول حسن السير بقصيدة كعب بن زهير. واسم الثاني طريقة الرشاد إلي تحقيق بانت سعاد وعلي بن سلطان الهروي واسم شرحه فتح باب الأسعاد في شرح بانت سعاد. ومحمد حسن المرصفي واسم شرحه القول المراد من بانت سعاد وجمال الدين السيوطي واسم شرحه كنه المراد في شرح بانت سعاد كما ذكر هؤلاء الشارحين زكي مبارك.[١١] واهتم بها كذلك المستشرقون فترجمها رنية باسية إلي الفرنسية.[١٢] وقال جرجى زيدان: وشرحها كثيرون منهم ابن دريد و التبريزي وقد طبعت بانت سعاد مرارا بمصر وأوروبا ومن الأصل والشروح نسخ كثيرة في مكاتب برلين ولندن والأسكوريال ومصر وغيرها.[١٣]

وخلاصة القول: أن العلماء قد اهتموا بها اهتماما كبيرا. وعدوها من أجل ما قيل في مدح الرسول. وورث المسلمون احترام قصيدة كعب حتى أن أحدا من العلماء لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة بانت سعاد.[١٤] وأن جملة ما كتب في رواية هذه القصيدة وفي شرحها وما قيل في تشطيرها وتخميسها يبين أثرها في اللغة والأدب العربي. وقد اعترف زكي مبارك أن قوله في هذه القصيدة لم يقل به أحد من المتقدمين. يعني أن كعب بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بعاطفة دينية قوية تسمو به إلي روح التصوف. وإنما هي قصيدة من قصائد المديح يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف.[١٥] وليست من المدائح النبوية في شيء وهو احتج

---

[٩] *نفس المرجع*، ص. ٢٧

[١٠] *نفس المكان*.

[١١] مبارك، المرجع السابق، ص. ٢٧

[١٢] *نفس المرجع*، ص. ٢٨

[١٣] زيدان جرجي، *تاريخ آداب اللغة العربية*، الجزء الأول، ص.١٦٢ز

[١٤] مبارك، *المرجع السابق*، ص. ٢٨

[١٥] مبارك، *المرجع السابق*، ص. ٢٣.

بقصة إسلام الشاعر، والمتقدمون قد اجمعوا أنها من أجل ما قيل في مدح الرسول وكان رأيهم عند نفوسهم ثابت قوي بدليل اهتمامهم بها في العصور المختلفة.

لعل هذا الاختلاف من قبيل ما قيل: إن الاختلاف رحمة. فاحتج زكي من وجه مقبول: كان كعب قدم النبي واستأمن. فعل ذلك بعد هروبه وهو هائم على وجهه لا يجد له مخلص. فكان ما يقوله من قصيدته ليس إلا للاعتذار من خوفه. ولكن قول المتقدمين ليس مردودا. قد قدم كعب النبي وهو تائب عما قبله. فأبدى نيته الخالصة وأن يكون آمنا عنده. وقبل النبي أحسن القبول كما ظهر في القصة. فأمنه وعاش مسلما محسنا ومنتجا. ولعل موقف الشاعر هذا هو الذي ذهب إليه المتقدمون وأثبتوا رأيهم. فاهتموا هذه القصيدة. والظاهر كما قال محمد حسن عبد الله: إن أول عناصر القصيدة الجيدة أن تكون صادرة عن تجربة صادقة تتضح فيه ذاتية الشاعر فتكون القصيدة تعبيرا عن أشواقه إلى الكمال.[١٦] ولا أطيل الكلام في هذا الاختلاف. ومن الجدير عندي القيام بتحليل هذه القصيدة نصوصها رجاء أن يزيدنا الفهم فنستطيع أن نثبت موقفنا عن هذه القصيدة والاختلاف.

هذه المقالة ستحلل هذه القصيدة مركزة على وجهة عناصر أساليبها وبيان شئ من خلفية ظهورها. فتحليل الأساليب سيشرف بها القارئ المعرفة التناسبية بين الأساليب المستخدمة وأحوال الشاعر ومقامه التي أسست قصيدته، وأما البيان عن الخلفية فسيشرف القارئ معرفة الأحوال الاجتماعية التي تثير شكل هذه القصيدة عند إنشائها.

ب. شاعر بانت سعاد

١. اسمه ونسبه

ذكر في كتب التاريخ مثل السيرة النبوية لابن هشام والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أن شاعر بانت سعاد هو كعب بن زهير. لا يزيد اسم هذا الشاعر بلقب ولا كنية ولا كلمة أخرى. وما بعد كعب من كلمة "بن زهير" إنما هو لمجرد النسب. لأن العرب معروف ومشهور من الأمم المتفاخرة للأصول والمتنافسة في الأنساب. فالمعنى أن كعب هو ابن زهير وأن زهير هو والده وأبوه. وأما نسبه من جهة الأب فهو ابن زهير أبو عقبة بن أبي سلمى ربيعة بن رياح من قرة بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.[١٧] وأما

---

[١٦] عبد الله، *مقدمة في النقد الأدبي*، كويت: دار البحوث العلمية، ص. ١٦٧.

[١٧] ابن هشام، *السيرة النبوية*، الجزء الأول (مصر: مصطفى الباب الحلبي وأولاده)، ص. ١٠٢.

نسبه من جهة الأم فهو ابن كبشة زوجة ثانية لزهير بعد أم أوفي. وهي بنت عمار بن عدي بن سحيم أحد بني عبد الله بن غطفان.[١٨]

تجلي من نسبه أن هذا الشاعر عربي خالص من جهة النسب رغم أن هناك اختلاف عند الرواة. ولكن هذا الاختلاف محدود حول اللهجات اللغوية، لا في حقيقة النسب لهذا الشاعر. ويظهر ذلك الاختلاف اللهجوي مثلا في اختلاف حركات الأسماء وحروفها كما وقع في ''قرة'' فقال أحد الرواة ''قرط'' وفي ''هرمة'' فقال ''هذمة'' بن لاطم. فتلك المختلفة إنما ترجع إلي مجرد اللهجات العربية المشهورة ولا من جهة نسبه الحقيقي فحسب.[١٩]

وأما ما يتعلق بأهل بيته فذلك الشاعر من أحد بني مضر. وكان أكثر أهل بيته شعراء. فكعب وأبوه زهير وجده أبو سلمى وعمتاه سلمي وخنساء وخال أبيه بشامة بن الغدر وابنا عمته تماضر والخنساء وأخوه صخر وابن بنته سلمى العوثبان وقريض وأخوه بجير وولده عقبة المضرب وحفيده العوام بن عقبة هؤلاء كلهم شعراء حتى يتفق الرواة على أن الشعر لم يتصل في ولد أحد من فحول الشعراء في الجاهلية اتصاله في ولد زهير.[٢٠] ولكعب ابن آخر من ولده الحجاج بن ذي الرقيبة بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب وهو الذي روي عنه التبريزي قصيدة بانت سعاد من طريقه سندا.[٢١]

٢. *حياة كعب الشعرية*

بعد أن أفتح الصفحات من الأساطير في كتب التاريخ اللغة العربية أو فيما يتعلق بهذا الشاعر لم أجد أحدا من الرواة يروي ما يتعلق بحياته رواية موفورة كافية بل بحياة الغير من الشعراء مثل زهير أبيه وبجير أخيه. ولم يعرف الرواة شيئا من حياة كعب الشعرية إلا الإشارة التي تشير إلى أنه كان حريصا علي قول الشعر عند صغاره. وكان زهير أباه وأستاذه. ويظهر من الرواية أن أباه زهير وقتا يزجره عن ذلك ويضربه فلا يزيده الزجر والضرب إلا كلفا بقول الشعر حتى ضاق به أبوه فأردف له على ناقته وانطلق به إلى الصحراء. وأخذ يقول البيت ويطلب الإجازة منه ابنه فيجيز حتى استوثق أبوه من أنه يستطيع أن يكون شاعرا.

---

[١٨] أبو سعيد حسن السكري، *شرح ديوان كعب بن زهير* (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر)، ص. م

[١٩] أنظر: ابن هشام، *السيرة النبوية*، ص. ٥٠٢ والأصفهاني أبي الفرج، *الأغاني*، الجزء: ١٧، ص. ٨٢ وعز الدين بن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، الجزء: ٤، ص. ٤٧٥.

[٢٠] السكري، *المرجع السابق*، ص. م

[٢١] *نفس المكان.*

فأذن له في قول الشعر.[٢٢] ولعل هذا النهي راجع إلى خوف أبيه أن يكون لم يستحكم شعره فيروى له ما لا خير فيه. فالنهي هنا بمثابة التربوية المستقيمة والتمرين الصالح في تطور ملكة ابنه كعب الشعرية.

وذات يوم قال زهير الشعر فأكدي ومر به النابغة فقال له: يا أبا أمامة أجز، قال: ما ذا ؟ فقال زهير:

تراك الأرض إما مات خفا وتحيى ما حييت بها ثقيلا

نزلت بمستقر العز منها.

فما ذا؟ قال: فأكدي والله النابغة أيضا. وأقبل كعب بن زهير وهو غلام. فقال له أبوه: أجز يا بني. فقال: ماذا؟. فقال: البيت الأول ومن البيت الثاني. فقال كعب: فتمنع جانبيها أن يزولا. فقال زهير: أنت والله ابني.[٢٣] وذكر أبو سعيد الحسن السكري: أنه ولد في الجاهلية وأسلم منصرف النبي من الطائف وحسن إسلامه. وأمتد به العمر حتى زمان معاوية وكان علوي الرأي.[٢٤]

٣. *كعب بن زهير بين معاصريه من الشعراء*

ومن وجهة أهل بيته تدل على أن شعرية كعب بن زهير مقبول وربما لا أحتاج إلي إطالة الكلام والاحتجاج في هذا. فشعرية كعب بن زهير جلية ظاهرة لأن نفسه شاعر وهو من ذرية العرب ونسبه عربي خالص وولادته وعيشه في العبر وكانت شعرية العرب كما قال جرجي زيدان لا تجحد.[٢٥] فعلى الأقل لعل هذه الواقعية كافية كدليل شعرية كعب ولكن المهم كيف كان الشاعر بين معاصريه من الشعراء؟ أهو ذو منزل ومقام عندهم؟

وقد رأى العلماء أن كعب هو الصحابي الجليل وأحد فحول المخضرمين المجيدين. وهو أحد الفحول في الشعر والمقدم في طبقته. وكان شعره قوة التمسك وجزالة اللفظ وسمو المعنى.[٢٦] وهذا التحقيق والقدر لم يوجد عند العلماء والرواة فقط بل قد حققه من يعيش معه. قال الخطيئة: قد علمت رواية شعر أهل هذا البيت وانقطاعي لكم. وقد ذهب الفحول غيري

---

[٢٢] أبو الفرج الأصفهاني، *الأغاني*، الجزء السابع عشرة، ص. ٨٣-٨٥ والسكري في *شرح ديوان كعب بن زهير*، ص. ف-ق.

[٢٣] السكري، *المرجع السابق*، ص. ر

[٢٤] *نفس المكان.*

[٢٥] جرجي زيدان، *تاريخ آداب اللغة العربية*. الجزء الأول (مصر: دار الهلال)، ص. ٥٨.

[٢٦] السكري، *المرجع السابق*، ص. م-ن

وغيرك. فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أشرع.[٢٧] وقال الخلف الأحمر إذا سئل: أيهما أشعر زهير أم ابنه كعب؟ فقال: لولا قصائد لزهير يذكرها الناس ما فضلته علي ابنه كعب.[٢٨] ولا سيما تعداد أشعاره الموروثة في الأدب العربي ثم إلى تربية أبيه لأستنتج أنها ليست من الغريب لو كانت من أحد الأمور التي تشخص ملكته الشعرية حتى صار من فحول الشعراء. ولا أنسى أهل بيته الذين أكثرهم الشعراء قد يؤكد شعريته. فكأنه قد عاش في الجو الشعري والشعراء الذين يحيطون بحياته كلها.

جـ. إنشاد قصيدة بانت سعاد

وأن من بعض أبواب الشعر العربي المشهورة الاعتذار والمدح. وقد أصبحا من بعض أغراض الشعر العربي المشهوران عند المجتمع العربي في العصور وخاصة في العصر الذي عاش فيه كعب بن زهير. وقد أنشدهما شعراؤهم في المناسبات والمهمات التي ترجع حسناتها إلى نفسهم أو إلى ملكهم أو إلى شعبهم. وغاية اعتذارهم ومدحهم بأشعارهم إما أن تكون ترجع إلي نفس الشاعر فنالوا أنواع المغافر عند الشاعر المستغفر والنوال المادية المرموقة له أو الروحية المقصودة عند الشاعر المادح. وإما أن تكون الأجور ترجع إلي المستغفر أو الممدوح كدوام الملكي والرئيسي. وأما أشعار المدائح فكان أكثر الممدوحين ملوكهم ورؤساءهم في قبائلهم. فالمدح مثلا فقد مدح زهير سادة العرب. وقد مدح النابغة الذبياني ملوكه من الحيرة والغساسنة مثل عمرو بن الحارث الغساني. وقد مدح الأعشى قيس طائفة من أشراف العرب من اليمنيين والربيعيين.[٢٩] وكذلك كان هؤلاء الشعراء اعتذروا عندهم. فالقبيلة إذا مدح رئيسها مثلا فاخرت سائر القبائل ولا سيما إذا كان مادحها من غير أبنائها.[٣٠]

وعرف منها أن تلك المدائح الملقاة إلي الرؤساء والملوك قد استغلت للدفاع عن قبيلتهم. وقد مدح زهير هرم بن سنان مع الحارث بن عوف لأنهما احتملا الديات وأصلحا بين عبس وذبيان.[٣١] ومكانة النابغة كانت عظيمة عند ملوك غسان وعند قومه من أهل البادية. ولعل عظم مكانته في البادية هو الذي رغب فيه ملوك الحيرة وغسان وأغراهم باصطناعه

---

[٢٧] الأصفهاني، *المرجع السابق*، الجزء السابع عشر، ص. ٨٢.

[٢٨] السكري، *المرجع السابق*، ص. ن

[٢٩] حسين طه، *في الأدب الجاهلي*، مصر: دار المعارف، ص. ٢٤١.

[٣٠] زيدان، *المرجع السابق*، ص. ٨٤.

[٣١] حسين، *المرجع السابق*، ص. ٢٨٣.

وتملكه واتخاذه موضوعا للنزاع بينهم.[٣٢] وكذلك الأعشى فيدور في أرجاء العرب علي مدح أمراءها ويحمل ما وراء مدائحه من الثواب والنوال.[٣٣]

وظهر من المظاهرات الشعرية أن هذه المدائح قد استغلتها العصبية ولا سيما ما وراءها من الثواب والنوال والشيء الآخر. حتى لو نقشت من جهة قيمة الفن الأدبي فقد نفيت هذه المدائح بل كان كثير من المدائح العربية خصوصا في العصر الجاهلي مردودة كذلك. لأن تلك المدائح جلية تخرج من العواطف التي تحمل الشاعر على الدأب وراء صالحه الخاص*(opportunist)* . فهذه ليست من الانفعالات الأدبية السامية التي يحرص عليها النقد الأدبي لأنها تحيى في دائرة المنتفع ثم تحمل النفس علي الأثرة والهوان.[٣٤] وعاقبة هذه السلوك الفردية أن هذه المدائح تنتهي إلى طمع شديد وعصبية ظالمة وانفعالات جاهلة رذيلة تدعو إلى احتقار الشاعر وعدم الاطمئنان إلي هذه الصفات التي يضفي عليها الممدوح.

إذا، لما أنشد الشاعر "بانت سعاد"؟ أكان غرض إلقاؤها عنده كما وقع في مدح زهير والنابغة والأعشى ملوكهم ورؤساءهم؟ وربما كان الجواب الأول "نعم" كان إنشاد "بانت سعاد" يجري علي الطريقة التي يسلكها هؤلاء الشعراء في الجاهلية. وهي امتدادها. الشاعر كعب بن زهير هو ابن المجتمع والمجتمع يتكون من أعضائها وهما تتأثرا يتأثرا وواقعية الحال هذه جلية ظاهرة. فمحمد هو من أحد سادة العرب ورئيسهم. والبردة التي نالها الشاعر من محمد تصح أن تعتبر توكيدا علي أن ما وقع عند كعب من غرض مدحه النبي مثل ما وقع عند هؤلاء الشعراء من غرض مدائحهم.

هل المسألة تتوقف إلى هذا الحد؟ أرى أن في هذه القصيدة قيمة زائدة خارج الأغراض السابقة ولعل هذه هي المسألة المهمة التي تستحق بالجواب في حقيقتها. وهي التي تدعو الكاتب الإبانة والشرح. وربما لم تقنع القلوب علي ذلك لو كنا لاننسى أن محمدا ليس هو رئيس العرب بل رئيس المؤمنين كلهم نبيهم ورسولهم. وإرساله رحمة للعالمين من العرب والعجم عامة. وهو رسول الله ونبي الله الذي هدم العصبية الظالمة وكسر الأوثان الجامدة. وهو الذي في يده شيء مدهش جديد وعظيم. ليس سجع ولا سحر ولا أساطير الأولين بل هو قرآن مبين مجيد. ولأجل الوصول إلي الإجابة المقنعة حول إنشاد "بانت سعاد" يحسن بي أن آتي برواية قصة إنشادها.[٣٥] ولعل هذه ستفتح لنا باب الإبانة والبيان وتشرح صدورنا

---

[٣٢] *نفس المرجع*، ص. ٣٠٢.

[٣٣] *نفس المرجع*، ص. ٢٣٦.

[٣٤] الشايب. *المرجع السابق*، ص. ١٨١.

[٣٥] انظر هذه الرواية في: ابن هشام، *السيرة النبوية*، الجزء الثاني، ص. ٥٠١. والأصفهاني، *كتاب*

من الاضطراب والشكاك.

ظهر الإسلام في جزيرة العرب ثم انتشر فيها. وأخذ الناس يدخلون فيها أفواجا.[٣٦] وكذلك خرج كعب وأخوه بجير ابنا زهير إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم حتى بلغا أبرق العزاف وهو في هذه الحال يطلب عن الإسلام ومن المسؤول عنه.[٣٧] فقال كعب لبجير: ألحق الرجل فأنا مقيم لك هاهنا. أنظر ما يقول لك، فقدم علي النبي صلي الله عليه وسلم. فسمع منه ما قال له شيئا وهو أسلم واعتنقه. فلما بلغ ذلك كعبا غضب له غضبا شديدا. حقيقة شأنه في ذلك شأن الجاهليين الذين يقاطعون إخوتهم وأقاربهم ويتبرءون منهم إذا أسلموا. فلقي بجير النبي صلي الله عليه وسلم مهاجرا. ثم قال إليه كعب بن زهير بأبيات يهجوه:

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل علي أي شيء غير ذلك دلك.
علي خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعالكا
سقاك بها المأمون كأسا روية فإن هلك المأمون منها وعلكا.

وبعث بها إلي بجير. فلما بلغت هذه الأبيات بجيرا كره أن يكتمها رسول الله. فأنشده إياها. فقال رسول الله لما سمع"سقاك بها المأمون" صدق وإنه لكذوب. أنا المأمون. ولما سمع" علي خلق لم تلف أما ولا أبا عليه" قال: أجل لم يلف عليه أباه وأمه على الإسلام. فأجابه بجير بأبيات فأرسله إياها:

من مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلي الله لا العزى ولا الات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتمن الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينهودين أبي سلمى علي محرم

فلما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة منصرفا من الطائف، كتب بجير بعد ذلك إلي أخيه. وهو يخوفه ويأمره أن يسلم وأن يقبل النبي. إن النبي صلي الله عليه وسلم

الأغاني، الجزء: ١٧، ص. ٨٢. وابن الأثير، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، الجزء الرابع، ص. ٤٧٥. والسكري، *شرح ديوان كعب بن زهير*، ص. ٣. وابن المنظور، *مختار الأغاني في الأخبار والتهاني*، الجزء: ٦، ص. ٢٩٢.

[٣٦] قال الله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح. ورايت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره. إنه كان توابا. (القرآن، النصر (١١٠):١-٤)

[٣٧] هو مكان الذي فيه ماء لبني أسد بن حزيمة وهو في طريق القاصد إلي المدينة من البصرة. وإنما سمي العزاف لأنهم يسمعون عزيف الجن.(مبارك، *المدائح النبوية*.ص. ٢١)

يهم بقتل كل من يهجوه ويؤذيه من شعراء قريش بمكة. فإن ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربا في كل وجه. فإن كانت له في نفسك حاجة فطر إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فإنه لن يقتل أحدا جاء تائبا. وإن أنت لا تفعل فانج إلى نجاتك من الأرض. فلما أتاه رسالة بجير ضاقت به الأرض وأشفق علي نفسه، وأرجف به من كان في حضرته وقالوا هو مقتول وأبت مزينة أن تؤويه. فقدم المدينة فنزل على رجل من جهينة بينه وبينه معرفة. ثم ذهبا حتى أناخ راحلته بباب المسجد. فغدا به إلي رسول الله حين سلي الصبح فصلي معه. فلما انصرفوا من الصلاة أشار له الرجل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: هذا رسول الله قم إليه فاستأمنه.

وحينئذ كان مجلس الرسول من أصحابه مكان المائدة من القوم وهم حوله حلقة ثم حلقة وهو وسطهم. فيقبل إلى هؤلاء فيحدثهم وإلى هؤلاء فيحدثهم. فأقبل كعب النبي وتخطى حتى جلس إليه صلى الله عليه وسلم ووضع يده في يده. وكان رسول الله لا يعرفه فقال: يا رسول الله! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله نعم. فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. فوثب رجل من الأنصار يقول: يا رسول الله ائذن لنا فيه. قال: فكيف وقد أتاني مسلما ثم قال له: أنت الذي تقول: ..... ، كيف قال يا أبا بكر؟ فأنشده حتى بلغ إلي قوله:

سقاك بها المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

وفي بعض الرواية:

سقاك أبو بكر بكأس روية وأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: مأمون والله، ثم أنشده كعب:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

فلما بلغ إلي قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

أشار رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي الخلق أن أسمعوا شعر كعب بن زهير. ولما فرغ من الإنشاد خلع عليه بردته وهي التي تداول الخلفاء لبسها.

والقصة هذه هي التي ورد فيها ما يتعلق بإنشاد القصيدة. وربما لا أحتاج إلي إطالة الشرح والبيان. فألفاظها مفصلة ومعانيها بينة وتراكيبها منسجمة مفصلة. وروايتها مؤكدة مشهورة فيمكننا تأملها في مبناها وفي سياقها ليتأكد لنا أنها مر تبطة بقضية معينة. فإسلام

شخص قد يختلف بإسلام شخص آخر. وما كان عند عثمان يختلف بما عند عمر من أسباب إسلامهما. ولما كان دعاء أبي بكر الصديق المستجاب يكفي به إسلام عثمان بن عفان. فأسلم عمر بن الخطاب بعد أن كان متوحشا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وبعد أن سمع سورة طه بقراءة فاطمة بنت الخطاب.[٣٨] فكان إسلام كعب كما يظهر في القصة. وقد أسلم بعد هجائه النبي صلى الله عليه وسلم وبعد تخوف أخيه بجير وبعد هربه عن النبي وبعد إرجاف من حوله وما جرى في القصة فأنشد بانت سعاد بعد إسلامه.

فمثال هذه هي التي تسمى بالتجربة الشعرية أو بالتجربة الدينية بالمعنى الخاص والتجربة الفنية الدينية الخاصة عند كعب بن زهير من وجه آخر. والتجربة الفنية الواقعية في حياة الناس كثيرة منوعة قد يصعب تعدادها. ومن هذه التجربة الفنية تجلى ما عند هؤلاء الشعراء من غاية إلقائهم في أشعار مدائحهم إلي ملوكهم ورؤسائهم. وتجلى ما كان عند كعب من غاية إلقائه قصيدته بانت سعاد أمام النبي. وإذا كانت غاية هؤلاء الشعراء في إلقاء قصائدهم هي التي تكون لأجل الدفاع علي قبيلتهم أو لنيل المناصب أمام ملوكهم فما كان عند كعب من غاية إلقاء قصيدته مليئ بالعقيدة الدينية. فمن المعقول إذا كان قبول النبي هذا الشاعر وعدم استنكاره ما ضمنته القصيدة من معانيه بمثابة أنه نبي الله ورسوله المعصوم من كل نقصان دليلا علي خلاف ما كان عنده وما عند هؤلاء الشعراء من غاية إلقاء قصائدهم.

الواقعة القاطعة أن كعب بن زهير عند ما اعتذر ومدح النبي في قصيدته كان لا يرغب في مصلحة دنيوية مادية كما وقع عند هؤلاء الشعراء ولا في الدفاع علي قبيلته كما فعل ذلك أغلب الشعراء في الجاهلية. بل كان مدحه مخلصا لا يلوثه غرض قريب المنال وممتلئا بالإيمان بالدين الجديد والتوبة عن الخلوق الجاهلية ولعل هذه الحال هي التي سمح لها النبي صلى الله عليه وسلم فخلع بردته ويهديها إياه.

د. المعانى العامة لنصوص بانت سعاد[٣٩]

إن مطلع قصيدة كعب بن زهبر يمتلئ بعاطفة الشاعر الحزينة.[٤٠] ففي هذا البيت كانت عاطفة الشاعر الحزينة تسيطر نفسه وهو يشكو إلي رسول الله فكأنه قائل: يا رسول الله: فقد أصابني الفرقة بيني وبين امرأتي فصار قلبي في غاية الضنى والسقم والذل والأسر لا أجد من قيده فكاكا ولا أستطيع من سجن هذه الحال خلاصا.

---

[٣٨] ابن هشام. *المرجع السابق*، الجزء الأول، ص. ٢٥٠-٣٤٣.

[٣٩] هذه النصوص مأخوذة من كتاب "*السيرة النبوية*، الجزء الثاني" الذي كتبه ابن هشام، ص. ٥٠٣.

[٤٠] أنظر الملحق الأول، ص. ٢٩.

فوصل الشاعر البيت الأول المملوء بالشعور الحزينة الزوجية الأهلية والشخصية بالبيت الثاني وما بعده حتي البيت الثالث عشر.[٤١] ولم يزل الشاعر فيها إظهار شعوره الحزينة المتعلقة بالحب في امرأتها فكأنه قال: يا رسول الله! عند ما فرقت امرأتي كأنها تئن أنينا مثل أنين الظبي الذي في صوته غنة وعينها كحيل وهي من امرأة كاملة الجسم لا نقص لها وإذا تبسمت تزهر عوارضها جلية صفية مثل حال من يشرب الخمر مرة بعد أخرى وهي من خلة صديقة كريمة. ولو أنها صدقت في الوعد وقبلت النصح لكانت علي أتم الحلال وأكمل الأحوال. يا للأسف! هي من خلة متصفة بالفاجع وولع وإخلاف الوعد حتى لا تمسك بعهدها أصلا بل مواعيدها مثل مواعيد العرقوب الباطلة. وحالها تتغير من حال إلى أخرى حتى ترى في صور مختلفة مثل الثوب المتلون بألوان شتى. ولو كانت كتلك فإني لم أزل أرجو مودتها ولا أيأس من وصلها والرجوع إليها.

وفي الأبيات من الرابع عشر حتى الرابع والثلاثين إظهار الشاعر الرجاء إلى الرجوع بعد مفارقته إياها وذلك تأكيد حبه فيها ودليل علي أنه لم يزل يرجو مودتها والرجوع إليها.[٤٢] فكأنه قال: يا رسول الله، لفرقتي بها صارت بأرض بعيدة مني. لأني قد هربت عنها حتى لا أمكنني الوصول إليها إلا إذا ركبت الإبل الكرام الأصول القوي السريع. وتلك الأرض التي هي فيها لا يبلغها إلا بناقة صلبة عظيمة قوية على السير، الناقة الكثيرة العرق عند ما اشتدت في السير، الناقة العارفة الطريق الدارس الأعلام المجهول المسالك لكثرة أسفارها وسلوكها الجيدة، فأركب الناقة الحادة البصر. فتبصر ما غاب من آثار الطريق عن العيون بعينيها الشبيهتين بعيني الثور الوحشي الأبيض وقت اشتداد الحر في الأمكنة الغليظة الصلبة والرمال المنعقدة الضخمة. غير أنها من الناقة الضخمة العنق جميعها العظيمة القوائم. هي عن بنات الفحل حتى تفضل علي غيرها، عنقها غليظة وجنتاها عظيمتان شديدتان حتى تشبه الذكران من الأباعر، هي واسعة الجنبين واسعة خطوها وجلدها في غاية النعومة والملاسة كأنه من جلد أطوم فلا يؤثر فيه القراد الهزيل من الجوع فيما برز للشمس من ناحيتي صلبها عن يمين وعن شمال. هي كريمة النسب لا تملكها إلا أقاربها، وهي من المهجنة هي طويلة الظهر والعنق والخفيفة السير، ولملاستها لا يثبت القراد عليها. هي عيرانة التي رميت باللحم من كل جانب من جوانبها. ومرفق هذه الناقة مصروف عما حوالي الصدر من الأضلاع وغيرها حتى تصون عن الضغط ووجهها من خطمها ومن لحييها يشبه الحر المستطيل وهي تمر ذنبا مثل جريدة النخل في الغلظ والطول. وهي كثيرة الشعر على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن

[٤١] أنظر الملحق الثاني، ص. ٢٩.

[٤٢] أنظر الملحق الثالث، ص. ٢٩.

فتكون أقوى على السير وهي محدوبة الأنف، يظهر عند العارف بالإبل الكرام، كرم ظاهر في أذنيها ونجابة في خديها سهولة وليونة. وإن هذه الناقة سريعة في السير بقوائمها سريعة الرفع عن الأرض فهي في غاية الإسراع في سيرها بل أعصاب قوائم هذه الناقة شديدة كالرماح السمر ولشدة وطئها الأرض تجعل الحصى متفرقا، ولصلابة خفافها لا تحتاج إلي تنعيل يقيها الحجارة التي تكون في رؤوس الأكم فلا تخفي ولا ترق قدمها.

يا رسول الله كانت سرعة ذراعي هذه الناقة العريقة في وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صغار الجبال في يوم يصير فيه الحرباء محترقا بالشمس حتى كأن البارز للشمس خبز معمول بالملة ولشدة حر هذا اليوم حتى إن الحادي الذي من شأنه أن ينشط الإبل قال للقوم: قيلوا واستريحوا هي تشبه حركة يدي المرأة الطويلة المتوسطة السن في اللطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها. فيجاوبها نسوة لا تعيش أولادهن فيشتد فعلها ويقوي ترجيع يديها عند النياحة لرؤية حزن غيرها وشدة لطمهن. وحال هذه المرأة كثيرة النوح على ميتها مسترحية العضدين فيداها سريعتان في الحركة، فلما أخبرها الناعون بموت أول أولادها لم يبق لها عقل فلا تحس بالإعياء والتعب فتقطع مدرعها بأناملها لذهاب عقلها فقميصها مشقوق عن عظام صدرها قطعا كثيرة.

عندما ينتهي الشاعر إظهار حبه ورجاء رجوعه إياها ينتقل الشاعر إلي ذكر من حوله فكأنه قائل[٤٣]: يا رسول الله إن القواة المفسدين الذين يسعون حولي قالوا: إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول. فجئت إلى كل صديق أؤمل فيه الخير بسلامة نفسي. لعلى أجد عنده المخلص والملجأ ولكنهم جميعا تخلو عنى وقالوا لي: إننا مشغولون عنك، فاعمل لنفسك فلسنا نملك لك شيئا إزاء ما أنت فيه. فقلت لهم: دعوني وشأني فقد رضيت بما قدر الله وما أراد به نفسي. ولو كان مصيري الموت فالموت مصير كل حي في هذه الحياة وإن طال أجله وامتد عمره. يا رسول الله هذه حالي وأحوال نفسي عند امرأتي ومن حولي عند ما جاءني وعيدك إلى الحال فلذلك خيرت بما توعدني به يا رسول الله من إهدار دمي. ولكنني آمل عندك العفو وأطمع في الرضا فإنك رسول الله الذي عرف بالرحمة والعفو.

بعد أن يسأل العفو من النبي فيوصله مادحا ومستعطفا له فكأنه يقول[٤٤]: أيها الرسول الكريم مهلا حتى تتبين لك حقيقة موقفي، أرشدك الله الذي خصك بالقرآن يجمع الحكمة والموعظة الحسنة للناس. ويفصل أحوال دنياهم وأخراهم، تمهل أيها الرسول ولا تأخذني بأقوال الوشاة فأني بريء مما نسب إلي ولم أفعل ما استحق عليه العقاب علي كثرة ما بلغك

[٤٣] أنظر الملحق الرابع، ص. ٣٠.

[٤٤] أنظر الملحق الخامس، ص. ٣٠.

عني من أقوال هؤلاء الوشاة. يا رسول الله لقد أقدم في موقف أرى فيه ما توعدني الرسول به وأسمع ما يقال عني. إنه موقف اضطراب وفزع حتى إن الفيل على ضخامته واحتماله لو كان في موقفي هذا يرى ما رأيت ويسمع ما سمعت لظل يرتعد فزعا وخوفا مما سيلقي. ولكنه بإذن الله تأمين يسكن به روعه وتثبت به نفسه حتى وضعت يميني حال كوني طوعا له راضيا بحكمه في غير نازع له ولا مخالف أمام ذي نقمة على الكفار. وقد خفت أشد الخوف والرهبة لأني قد أكلمك حتى قيل إنك تسألني من أمري وتوعدني وإنك أهيب من أسود عثر في آجامها التي كثرت الافتراس وعظم الاصطياد حتى إذا واثب قرنا فلا يتركه إلا وهو المكسور والمهزوم ولقوة هذا الأسد وافتراسه خافه السباع والناس، ولا يمر بوادي هذا الأسد شجاع إلا أكله وطرح ثيابه التي مزقها فما ولع إلا بالشجعان ولا يلتفت لغيرهم.

ويختم قصيدته هذه مادحا الرسول وقومه قريشا فكأنه قال[٤٥]: ما أعظم رسول الله إنه لنور ساطع قد أرسله الله ليضيء السبيل ويبدد ظلمة الجهالة والضلال وهو سيف أصلته الله ليقضي به على المشركين.دعا إلى دين الله فأتبعه جماعة من قريش صبروا على إيذاء الكفار والمشركين ثم دعاهم داعي الهجرة إلى المدينة لنشر دين الله ولفتح آفاق جديدة للإسلام فلبوا الدعوة لقد هاجر هؤلاء وكان أقوياء شجعانا عند لقاء الأعداء، ليسوا ممن يرتدون منهزمين يوم الوقيعة. ولا هم عزل لم يعدوا للحرب عدتها وما أكرم نفوس هؤلاء المسلمين وما أعزهم وهم بياض البشرة ووقار والسؤدد إنهم أبطال عند اللقاء لا يتوازنون ولا يتواكلون لباسهم يوم الحرب الدروع المحكمة الصنع وهم فوق ذلك لا تخف أحلامهم. فإذا ما انتصروا على قوم وأصابوا منهم مقتلا، لم تأخذهم نشوة الظفر كما أنهم لا يجزعون إذا أصيبوا. وإذا دارت عليهم الدائرة لم يذهب الروع بألبابهم لرباط جأشهم، وهم شجعان يلقون الطعن بصدورهم لا بظهورهم كما يفعل الجبناء ومهما اشتد عليهم القتال لا ترى منهم من يفر من ساح المعركة بل يثبتون فإما النصر وإما الاستشهاد.

هـ. التحليل عن القصيدة

١. غرض القصيدة

غرض هذه القصيدة كما قال محمد أحمد المرشدي وغيره هو للاعتذار والمدح.[٤٦] وسمى العلماء هذه القصيدة "بانت سعاد" وهي مأخوذة من مطلع القصيدة.

---

[٤٥] أنظر الملحق السادس، ص. ٣١.

[٤٦] المرشدي محمد أحمد وأصحابه، *الأدب والنصوص والبلاغة*، مصر: دار المعارف، ص. ١٣٩.

المقطع الأول هو البيت الأول.

وفي هذا البيت ذكر الشاعر فرقته بينه وبين امرأته حتى صار من الرجل المتبول المتيم المقيد بالحب. وكان سبب هذه الفرقة لهروبه عن النبي بعد وقوع الوعيد منه. القضية الاجتماعية الفردية يعنى قضيته مع امرأته ووعيده من النبي تصبح خلفية هذه القصيدة مع إمكانية قضية اجتماعية أخرى. ويرى أنه يستهل قصيدته بالغزل إذ يذكر في مستهلها سعاد وهي اسم امرأته وبنت عمه.[٤٧] وفراقه عنها وأن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك. ولعل الشاعر في هذا الغزل يتأثر أباه في بعض غزله. إذ يقول زهير في إحدى قصائده:

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسي الرهن قد غلقا[٤٨]

المقطع الثاني: البيت الثاني إلي الثالث عثر.

وفي هذا المقطع ذكر الشاعر امرأته فيعبرها بتعداد أوصافها ظاهرها وباطنها. فيصف جسمها بالصورة المادية الحسية مثل غضيض الطرف وكحيل والهيفاء والعجزاء والقصر والطول والابتسام، ويصف أحوالها الباطنة بإظهار أخلاقها مثل الخلة والصدق والوعد والفاجع والولع والإخلاف وغيرها من الأوصاف الأخلاقية. ولزيادة التأثير عند السامع أخذ الشاعر أسلوب تعبيره بالتشبيه والمثل كما يظهر في "كأنه منهل بالراح" و"كما تلون في أثوابها الغول و"كما يمسك الماء الغرابيل" و"عرقوب" وهو رجل اشتهر عند العرب بإخلاف وعده فصار "مثلا" لمن أخلف وعده والمجاز مثل "شجت".

المقطع الثالث: البيت الرابع عشر حتى الرابع وثلاثين.

في هذا المقطع ينتقل الشاعر بعد تعداد أوصاف امرأته إلى تعداد أوصاف ناقته. ولا يختلف طريق أسلوبه بما عند امرأته، فيصفها بتعداد أوصافها بالصورة المادية الحسية. وهو يأخذ الأوصاف الدالة على المعاني الكريمة العظيمة القوية لناقته، مثل: العتاق والعذافرة والضحم والعيرانة وغيرها وكأن الشاعر في وصف ناقته هنا ينتهي إلى كمال أوصافها لا يتأخر منها شيء من جسمها وأعضائها وجلدها وسيرها حتى نسبها وأحوالها تفصيلا مفصلا محددا ومبينا. وقد أخذ الشاعر في تأدية هذه الأوصاف أسلوب التشبيه وهو يريد أي يكون استخدام هذا الأسلوب ترك به آثرا بعيدا عند السامعين والناعمين قصيدته كما ظهر ذلك في "كأن أوب" و"كأنما فات" و"كأن ضاحيه". وأوصاف الشاعر في قصيدته مرآة صافية لسلوك مجتمعه الذي يستخدم الناقة حيوانا مهما في الحياة الاجتماعية.

المقطع الرابع: البيت الخامس وثلاثون حتى التاسع وثلاثون.

---

[٤٧] ابن هشام، *السيرة النبوية* ٢، ص. ٥٠٣.

[٤٨] شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي*، الجزء الأول، ص. ٨٥.

تجلى في هذا المقطع أن الشاعر ينتقل من مسألة امرأته وناقته إلى شيء جديد وهو غرض إلقاء هذه القصيدة وغايتها. وهو ذكر من حوله من القوم المتغيرين من المدافعين إلى المعاندين عن نفسه وصاروا أعداءه وهم في أول الأمر أصدقاؤه. وكأنه يعبر أمام رسول الله صلي الله عليه وسلم أحواله النفسية الهائمة من مجيء وعيده وسلوك امرأته ومن حوله المتغيرة من مدافع إلى معاند. وهو يخاف ويفزع قلبه ونفسه بأحوال من حوله. وكأن الأرض الواسعة صارت ضيقة عند نفسه لا ترض لحياته وعيشه فوقها والموت أمامه ليس له ملجأ ولا صاحب دون صاحبة إلا نفسه ولا حول له ولا قوة وكل ما قدر الرحمان مفعول.

ففي هذه الحال كأنه ذكر أن موقفه هذا خطأ وسلوكه هذا ضال إلا إذا كان استسلم وتاب وآمن عند رسول الله وهو أقوم الطريق وأسلم السلوك في حقيقته وإنما رحمته وعفوه وأمنه هو الرجاء الوحيد لا غير، فيتوب ما قبله وأمن في ما بعده حتى مات فتوكل على الله ورضي بأن محمدا رسول الله. وقد أخذ الشاعر في تأدية مقاصده التعبيرات الفطرية العميقة الجميلة مثل "وألهينك إني عنك مشغول" و"لا أبالكم" و"على آلة حدباء محمول". وأسلوب الاستراح وأنسام الأمل "والعفو عند رسول الله مأمول".[٤٩]

المقطع الخامس: البيت الأربعون إلى خمسين.

وفي هذا المقطع يظهر الشاعر مادحا ومستعطفا النبي صلي الله عليه وسلم ولعله يلاحظ ما تقدم من قصيدته فوضع مدحه واستعطافه هنا. فذكر خصوصية محمد الذي نال القرآن المملوء بالمواعظ والحكم من الله تعالى وذكر إفساد من حوله من أحواله وكذب أقواله وبهتانه ويعبر خوفه وفزعه غاية الفزع. ولكنه سكن قلبه وثبتت نفسه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا منازع بإذن الله. ثم ذكر تعليل خوفه وهو كأنه يقوم أمام ذي نقمة الذي هو أهيب من السباع بكل أوصافها المهيبة. وقد أخذ الشاعر في هذا المقطع أسلوب المدح الجيد المختار وأبيات الاستعطاف المؤثرة كما ظهر في قوله "مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن. ولا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل"[٥٠] و"حتى وضعت يميني ما أنازعه".

المقطع السادس: البيت الواحد وخمسون حتى الثامن وخمسين.

ويختتم الشاعر في قصيدته مادحا الرسول وأنصاره. وهو يسلك طريق أسلوب تعبيره بأخذ خصوصية محمد الذي هو صاحب نور الهداية الساطع ولم يزل سيفه المهند مسلولا لحماية هذا النور الإلهي. فيعبر تعداد الأوصاف الدالة على معاني البطولة لأنصاره في

[٤٩] المرشدي، *المرجع السابق*، ص. ١٤٢.

[٥٠] المرشدي، *المرجع السابق*، ص. ١٤٣.

الحرب ولا ينسى ذكر نسبهم ووقارهم وسؤددهم كما ظهر في بيت "في عصبة من قريش" و"ولا كشف عند اللقاء" و"شم العرانين أبطال" و"وما لهم عن حياض الموت تهليل". ويرى الشاعر في تأدية مدحه قد أخذ أسلوب التشبيه مثل "إن الرسول لنور"، والكناية مثل "لا يقع الطعن إلا في نحورهم". لأن الشجاع هو الذي يتلقى الطعن في صدره أما الجبان الذي يهرب من المعركة فتصيبه الطعنة في ظهره.[٥١] ولو كنا نظر من وجه ربما يدهشنا أن الشاعر بدأ قصيدته بالمطلع الحزين من قضية زوجيته وأهله ومن حوله وفي غزله ووصف ناقته مع أنه في الاعتذار والمدح. فلعل هذا من أمر مناسب لائق متفق ولا سيما أن هذه القصيدة للاعتذار الذي يحتاج التعطف من المستغفر حتى صار هذا المقطع الحزين زيادة في تأثير التعطف.

٢. *نظرات في المجتمع والحياة*

أرى في المقطع الأول إلى الثالث أن الشاعر قد عبر شعوره الحزين هو شعور الحب من جهة وقلق من جهة أخرى فيعبره بذكر أوصاف امرأته وناقته. وكأنه يفتخر بتعداد الأوصاف الجميلة عند امرأته وكأنه يفتخر بأنه يحترق في سبيل الوصول إلى حبيبته السدود والقيود ويتخطى المعاشر والأحراس. وفي هذا ما فيه من التباهي بالقوة والاعتداد بالنفس والقدرة على اقتحام المخاطر والولع بالمفاخرة التي هي من خصوصية المجتمع العرب. وهو يستعين بناقته الكريمة نسبها والضخم جسمها حتى تستطيع حمل المشقة والمسافة البعيدة. الناقة هي رمز من رموز الحياة البدوية.

بعد التأمل العميق بهذه الحالة أجد أنها من إحدى خصائص حياة البدوي في الصحراء لأن البدوي كما قال جرجي زيدان إذا تيمه الحب وأراد التعبير عن حبه وشوقه وهيامه يصف ما يشعر به تماما.[٥٢] وكذلك استعانته الناقة ووصفها. فأجد أنها جميعا أشبها بالرموز التي تكشف عن حقيقة إنسان ذلك العصر وموفقا من الحياة الاجتماعية البدوية. ورغبته في الانتصار عليها بكل ما أوتي من قوة، ويكفي أن أراجع أوصاف الناقة، فكلها أوصاف مشتقة من معاني القوة غير أن علاقة البدوي -كما قال إسماعيل مصطفي الصيفي- بجمله أو ناقته كانت أشد وأقوى من علاقته بالحيوان الغير. فالناقة أو الجمل صديق البدوي الذي لا يكاد يفارقه يطعم لحمه ويشرب لبنه ويرحل عليه وهو عنده هبة الله الكبرى.[٥٣]

---

[٥١] المرشدي، *الأدب والنصوص والبلاغة* (مصر: دار المعارف)، ص. ١٤٤

[٥٢] جرجي زيدان، *تاريخ آداب اللغة العربية* (مصر: دار الهلال)، ص. ٧٣.

[٥٣] إسماعيل مصطفى الصيفي ومحمد حسن عبد الله، *النقد الأدبي والبلاغة* (كويت: وزارة التربية)، ص. ٨٨.

وأرى في المقطع الرابع إلى السادس أن الشاعر عبر حالة نفسه الهائمة وقلقه في الحياة، ثم أثبت نفسه اختيار طريق مدهش برجاء انتهاء قلق نفسه وحزنها فاستسلم وأمن عند رسول الله على كونه معترفا بذنبه ويسأله العفو والأمن فمدح النبي وأنصاره. فكانت هذه الحالة الواقعة عند الشاعر جلية واضحة من أثر الانقلاب الديني والاجتماعي وهذه الحالة كذلك تدل على أحوال المجتمع في ذلك العصر أمام هذه الثورة الاجتماعية الإسلامية، فكأن الشاعر بقصيدته مرآتها. فربما صح لو قيل إن هذه القصيدة كأنها قنطرة تبنى علي الثورة التي تربط بين العصري الجاهلي (ما قبل الإسلام) والإسلام، من البدوي إلى الحضري. فالنصف الأول في جو الجاهلي والثاني في جو صدر الإسلام والحضرفحسب.

٣. *عناصر القصيدة*

عنصر العاطفة. إن الإنسان حينما تهيأ لإنشاد الشعر كانت عاطفته تسيطر علي نفسه.[٥٤] و عند ما اتبعت هذه القصيدة أري فيها أن العاطفة الجارية هي خرجت من التجربة الباطنة والحالة النفسية العميقة. وهي صادرة من تجارب الحياة الشخصية التي كان عليها كعب عند ما أهدر الرسول دمه فهرب حتى فارقته امرأته وتخلى عنه أصحابه ولم يجد منقذا ولا ملجأ كما يتجلى فيها تسليمه بالقضاء والقدر حيث لا مفر من ذلك الشعور العاطفي.

ولعل ذلك هو الذي جعل له سببا عاطفيا عند بعض العلماء. يرى أن العاطفة الجلية في هذه القصيدة هي العاطفة الشخصية التي تحمل على الدأب وراء صالح الشاعر الخاص. وهو التخلص مما سيقع على نفسه من الموت كما يتجلى هذا الشعور في بعض أبياته في تسليمه عند الرسول وهو يأمل العفو عنده حتى كأن اعتذاره ومديحه النبي لأجل سلامة نفسه.[٥٥] فليست هذه العاطفة من الانفعالات الأدبية السامية التي يحرص عليها النقد، لأنها تحيى في دائرة ضيقة هي دائرة المنتفع الفردي ثم تحمل النفس على الأثرة والهوان كما تقدم. لعل هذا الرأي صحيح من جانب معينة مع أن في الواقع قد سلم الشاعر من موته بل قد قبل البردة من النبي.

ولكن المسألة العاطفية هذه لم تقف إلى واقع هذه الحياة، فموقف الشاعر الذي يرفض الدين الجديد لم يقع عند الشاعر نفسه. وأرى أن هذا الموقف مثل ما وقع عند غيره من الشعراء وكثير من الناس من مواقفهم أمام هذا الدين الجديد في ذلك العصر. وقد حربه كثير منهم فهربوا إلى حيث يشاءون ولكنهم إما ماتوا على كفرهم مثل الزبعرى وهبيرة وإما يدخلون

---

[٥٤] الصيفي، *المرجع السابق*، ص. ١٦

[٥٥] زكي مبارك، *المدائح النبوية، في الأدب العربي* (مصر: دار الكتب العربي)، ص. ٢١.

هذا الدين الجديد فأسلموا ونصروه مثل عمر بن الخطاب وحسان بن ثابت وكعب بن مالك.

حقيقة الحياة إن هذه الحال قد وقعت في أول صدر الإسلام وهو الذي يعرف بزمن الانقلاب والثورة الدينية والاجتماعية. فكان موقف الشاعر من أحد مرآة الحياة الاجتماعية لأحوال كثير من الشعراء على وجه الخاص أو الناس عامة في ذلك العصر أمام هذا الدين الجديد بل مرآة أحوال المجتمع العربي حينما جاء الإسلام. وهي مذكورة في كتب التاريخ فرفضوه في أول الأمر فقبلوه حينما كانوا يعلمون أنه الحق من ربهم الله عز وجل. فكأن ذلك موقف من رفض شيئا جديدا مجهولا فقبلوه عند ما عرفه وفهم حقيقته.

ومن ذلك أرى أن العاطفة عند الشاعر في قصيدته التي تظهر على موقفه من هذا الدين إنما هي من التجربة الدينية عند نفسه وعند غيره. فهي عميقة تتخطى المألوف وهي التي تكشف رؤية جديدة تحت القشرة الزاهرة وهي الإيمان والتسليم والتوبة. فهي ليست لمجرد سلامة نفسه من الموت فقط بل لسلامته في الدنيا والآخرة التي هي حقيقة السلامة عند كل إنسان يطلبها ويجهد في أجلها دوما.

وحينما ذكر الشاعر أحوال نفسه وشعر أن الإيمان والتسليم أقوم الطريق وأسلكه اعتذر النبي ومدحه كما مدح أصحابه تعبيرا ومعترفا لما في قلبه من الإيمان وكان النبي وأصحابه هم أليق بالمدح والاعتذار منهم وأنسب من غيرهم. فلذلك ينسق شعوره وتتناسب عاطفته مع الأحوال الاجتماعية. وكان مدح كعب إياهم من قبيل المدح الذي يتجه إلى الإحسان في ذاته أو إلى المحسن باعتباره فاضلا إنسانيا ولا ننسى اعتذاره النبي فكان من قبيل الاعتذار في حقيقته لاعترافه على ما قبله من ذنبه وهجائه النبي. وكذلك ثناؤه على بطولت صحابته وأمانتهم يجد من جميع النفوس إصغاء لأنه متصل بفضيلة عامة عند الناس.

نعم إذا كانت عاطفة الشاعر في أول الأمر من العاطفة السيئة الرذيلة التي لا تحرص عليها النقد فحقيقة مثل هذه العاطفة لم تقع عند الشاعر نفسه بل عند غيره من كثير الشعراء الجاهليين، فمدائحهم واعتذارهم تنتهي إلى طمع شديد وعصبية ظالمة وانفعالات جاهلة رذيلة تدعو إلى احتقار الشاعر وتفريق الناس وكانت أشعارهم قد استهلكت معانيها وأغراضها.[٥٦] فلذلك لم يزل النبي وأصحابه حاربوهم وهزموهم وقتلوهم إن كانوا يثبتون على كفرهم ويكاد القتل يقع عند النفس الشاعر إن لم يتب ولم يؤمن. ولكنه آمن وتاب عند الرسول فلم يقع القتل فكان كعب قد استطاع قلب هذه العاطفة وبدلها بالعاطفة النبيلة الجليلة وهي عاطفة الإيمان والإسلام والتوبة وهي عاطفة فنية مبهرة عند النفوس المطمئنة.

---

[٥٦] محمد حسن عبد الله، *مقدمة في النقد الأدبي* (كويت: دار البحوث العلمية)، ص. ٢٨٤.

فلا غرابة إذا كانت هذه القصيدة خالدة مشهورة لأنها تصدر وتنبعث من العاطفة الصادقة التي تظهر من تجارب حياته الحقيقية وهي تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع حتى تكون عميقة تهب لهذه القصيدة قيمة خالدة. فإيمانه وإسلامه حال كونه شاعرا فحيلا مشهورا في الجاهلي بين معاصريه من الشعراء يبعث الإعجاب الحق والوصف البديع الغريب. فكأنه أحد الدليل من انتصار الحق فأصبحت هذه القصيدة تعبيرا تصدر وتظهر من صوت قلبه فوصل إلى قلب النبي وتأثر بها الرسول الكريم. قال عز وجل: وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.[٥٧]

ويؤكد على ذلك التحقيق اهتمام العلماء على مرور العصور. فمن وجه كان هذا الاهتمام دليلا على قوة عاطفة الشاعر في قصيدته هذه. يعني كان العلماء قد تأثروا بها بوجود اهتمامهم. فلا غرابة لو كانت العاطفة الصادقة فيها تؤثر قلب القارئ الغير. وأعطته عينا جديدة ترى فيها وقلبا جديدا يحس به من هذه القصيدة فحسب.

ثم عند ما أتأمل هذه القصيدة بيتا فبيتا أجد هناك ثبات عاطفة هذا الشاعر المملوئة بعاطفة انقلابية. هو يبدؤها بالتعبير عن فرقته من حبيبته فيصفها ويصف ناقته بالتفصيل والتحديد والتطويل فذكر مواقف من حوله على نفسه فاعتذر النبي ومدحه إياه وأصحابه وكل هذه ملونة بالحزن العميق عند نفسه. فكأن هذا الحزن ينقلب قلبه إلى عاطفة جديدة وهو التسليم، فيزداد تسليمه ويتضاعف إيمانه ساريا مع زيادة قراءتنا منسجمة في خلال قصيدته.

فأقول إن العاطفة السائرة في هذه القصيدة هي العاطفة العميقة السائدة عند نفس الشاعر. وهي العاطفة الإنقلابية التي تغير فلسفة حياته ومنهجها من الجاهلية إلى الإسلام. هي من التجربة الدينية التي وقعت في العصر الانقلابي عصر صدر الإسلام فكأن الشاعر يعبر عن أشواقه هي ازدياد الكمال في جو الإسلام والإيمان.

عنصر الفكرة. قال أحمد الشايب: أن للعاطفة المقام الأول في أسلوب الشعر والقصيدة ولكنه ليس معنى هذا إهدار الفكرة أو المعنى فيها. فالفكرة هي التي تشرف على العاطفة وكانت سندا وعونا لها.[٥٨] وفي ظل ذلك الخاطر الساري والعاطفة الحزينة الراسخة في نفس الشاعر الهائمة في هذه القصيدة وهي عاطفة الخوف من الموت لإهدار النبي دمه، انصرف هاربا إلى أي مكان وهو يفكر أن الهروب من النبي صلى الله عليه وسلم سيخلصه من شعور خوفه. والواقع ليس كذلك بل يزيده الخوف ويضعفه الحزن في حزنه وفعله وهذا يسبب فرقته

---

[٥٧] القرآن، الإسراء (١٧): ٨١؛ وقد دخلها صلى الله عليه وسلم وحول البيت ثلث مائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول ذلك (الآية الكريمة) حتى سقطت. رواه البخاري.

[٥٨] أحمد الشايب، *أصول النقد الأدبي* (القاهرة: مكتبة النهضة)، ص. ٢٢٤.

من حبيبته ولاسيما عند ما كان لم يجد منقذا يستظل تحته ومفرا يلجأ إليه.

فلذلك يفكر عن التسليم أمام النبي، فجاء إلى النبي تائبا مسلما عنده وساكنا بقضائه حينما يعبر عن أحوال نفسه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم. فذكر أحوال حبيبته عند فراقه وإرادته الرجوع إليها حتى بذل جهده على المسافة البعيدة بناقته وذكر مواقف من حوله على نفسه وهم بريء عن نفسه فاعتذر النبي ومدحه إياه وأصحابه وهو يرى أن هذا الفكرة صحيحة واحدة ويرجو أن هذا الطريق مقبول عنده. الواقع قد قبله النبي وسلمه حتي يستخلصه عن خوفه وهمومه وحزنه. عند ما تأملت فكرة القصيدة أرى أن الشاعر قد استطاع ترتيب أفكاره في داخل نصوص القصيدة فكأن الشاعر أخذ قصة نفسه وأحوال عاطفته عند ما جاء وعيد الرسول أن يعطي نفسه النجاة والسلامة فيشكوه معتذرا ومادحا حال كونه يحمل الإيمان فتأثر النبي به حال كونه نبيا عارفا معصوما فقبله.

نعم قد كثرت القصائد في ذلك العصر التي أغراضها للاعتذار والمدح وهي ليست لمجرد تلك الأغراض بل للدفاع عن القبيلة أو لأجل المصلحة الشخصية عند شعرائها كما تقدم. بخلاف هذا الشاعر فكان قد أخذ اعتذاره ومديحه في هذه القصيدة على المعنى الموضوع يعني على كونه معتذرا حقا ومادحا حقا الذي يخرج من ترتيب فكرته الخالصة وهو بذلك لتأدية ما في قلبه من الإيمان فأرى أن هذه قصيدة غريبة في ذلك العصر وربما قد صعب طلب مثل هذه القصيدة ولعل الشاعر قد ذكر أحوال من حوله من الكافرين والمؤمنين وألهمه من ثبت على كفرهم وقاست قلوبهم كيفما كانوا وعاقبتهم وألهم فكرته من تابوا وأسلموا كيفما كانت أحوالهم وعاقبتهم فأخذ أقوم الطريق وأسلك السالك هو التوبة والتسليم.

فأسأل: أفي هذه القصيدة صحة الفكرة؟ فربما كان من أمر واجب في الأدب أوفي القصيدة مثلا صحة الأفكار. وهو من الغريب عند ما كانت القصيدة مثلا أدبا ساميا وهي قائمة على آراء خاطئة. وهي صورة وعبارة لحقائق الحياة. فكيف نسمح لها بتشويه هذه الحقائق. وإذا كانت القصيدة مثلا صورة للحياة كما يتصورها الشاعر فإن قيمتها تقاس أيضا بصحة هذا التصور ومقدار صلتها بالحقائق المقررة.

فليتأمل قول الشاعر[٥٩] : فأول ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجد الذي هو الغاية هو حسن التأني والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب وخضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولتكن غايته معرفته أغراض المخاطب كائنا من كان ليدخل إليه من بابه ويدخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي تفاوت الناس وبه تفاضلوا. فلعل أحوال

[٥٩] الشايب، *المرجع السابق*، ص. ٢٣١.

النبي وأصحابه يعني قبولهم بمقياس هذا القول عند إنشاد هذه القصيدة دليل على صحة فكرة الشاعر فيها.

وأقول: إن فكرة هذه القصيدة هي فكرة معقولة مقبولة وهي الحق التي وقعت عند تجارب حياته بل وحياة غيره من المجتمع وهي جلية قضيتها حاسمة وصلتها بالبيئة وثيقة ملائمة، فتقوم تلك العاطفة الصادقة على فكرة قيمة صحيحة مسندة ومعينة لها. فصارت نتيجة خطيرة جدة ومرآة صادقة للعصر المجتمع الذي أنشئت فيه.

التعبير والشكل الفني. وربما لا يجحد لو كنت أقول: إن هذه القصيدة تتألف من الألفاظ الفصيحة المألوفة والكلمات المختارة البعيدة من المصطلحات العلمية حتى توافق لغتها لغة العاطفة التي هي أساس القصيدة وكان الشاعر يستقيم في استعمال تلك الألفاظ والكلمات على معانيها الموضوعة وقواعدها اللغوية فكان الشاعر قد استطاع وضعها بعد اختيارها لقصيدته في مواضعها موافقة لغرض إلقائها وهو للاعتذار والمدح.

نعم، هذه الألفاظ والكلمات المستعملة فيها جرت معتادة ليس لها فضل ولا تميز، فربما نصعب أن نقرر أنها متميزة متفضلة. ألا إنها لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم منفردة مفردة. وأن الألفاظ والكلمات ستكون لها الفضيلة وخلافها ثابتة في ملائمة معنى اللفظة لمعنى الذي يليها والملحوظة من النصوص الأدبية أو ما أشبه ذلك مما يتعلق له بصريح اللفظ.[٦٠] نعم. هناك الألفاظ والكلمات الغريبة وذلك إنما هي غرابة الاستعمال في اليوم. هذه ظاهرة. لا في ذلك العصر الذي أنشأت هذه القصيدة فيه. حتى نكون تارة لا نعرف ولا نفهم معانيها ولا مضمونها إلا بالجد والفحص. أو هي ليست لصعوبتها وإنما هي لعدم دورها على ألسنتنا اليوم فحسب.

فلا غرابة لو كانت هذه القصيدة من حيث الفن والشكل مقبولة. لأنها تارة تكون ألفاظها المركبة فيها توحي المعاني الممتلئة بالحزن العميق كما تتجلى في مطلع القصيدة، وتارة تدل علي معاني القوة الشديدة كما تتجلى في أبيات وصف الشاعر بها ناقته، وتارة تدل علي الاستعطاف المؤثر كما تتجلى في أبيات اعتذر بها النبي، وتارة تدل علي الروح الديني والدعوة له كما تتجلى في أبيات مدح بها النبي وأصحابه وهكذا. وكلها وضعت في مواضعها منسجمة متينة الأسلوب بين أجزائها حتى يكون هذا الشكل الفني إذا أخذت أجزاؤه من بين أخواتها وأفردت لفسدت هذه الصورة الرائعة وضاع ذلك الشكل الفني الجميل. فكأن الشاعر قد اختار هذا الشكل الفني ووضع عاطفته وفكرته في ظله موفقا ومألوفا.

---

[٦٠] الصيفي، *المرجع السابق*، ص. ٢٤٧.

وقد اختار الشاعر بحر قصيدته البسيط وربما يدل على بساطته ولا يصطنع في كلامه. فلنأخذ تقطيع بيت منها

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

/ه/ه //ه/ //ه/ه//ه/ه //ه/ /ه/ه/ /ه/ه/ه/ه

مستفعل فعلن مستفعلن فعلن متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

ولنجرب قراءة هذا التقطيع بوزن بحره مع الصوت المتوسط فنجد أن صوت وزن بحره لا الهبوط ولا العلو. بل يجري على المعتاد كعادة الحازن والمساوي على حزنه. واختار الشاعر قافية قصيدته باللام حتى كأنها تدل على طول حزنه ومتبول عقله ولكنه لا ييئس بل كان قوي العاطفة وقويم الفكرة حتى جاء إلى النبي تائبا وآمنا مسلما. فأخذها كثير من العلماء كما تقدم.

عند ما تأملت القصيدة جيدا أجد أنها صيرت من مجموعة المعاني مجاورة بعضها بعضا. وهي تتجلى من خلالها تارة ذكر الشاعر فرقته من حبيبته وتارة وصف امرأته وناقته وتارة ذكر أحوال من حوله فاعتذر ومدح النبي وأصحابه. ولكن ذلك عمل شعري موحد وإن تعددت معانيها ومشاعرها. فهي كلها ترتد إلى خاطر واحد يهيمن على النص كله وينشر فيه انتشار الأعصاب في البنية الواحدة الحية. والخاطر إنما هو الخوف من موته. فتأملنا بها بيتا بيتا نجد ارتباط كل أبياتها ووحدة عضويتها فتنمو وتطور في خلال نصها ثم تزداد هذه المعاني المصورة مركزة وموحدة حتى تجتمع أجزاء هذه الصورة الرائعة في بؤرة واحدة التي هي التسليم والإيمان بالقضاء والقدر. وكأن الشاعر في هذه القصيدة يشكو النبي على ما وقع في نفسه من فرقته عن امرأته وهروبه وحزنه وأحوال من حوله عند ما جاء وعيد الرسول لسبب هجائه من قبله فيعبرها بشكل القصيدة هذه.

وأرى أن الشاعر قد استطاع بصور تعبيره في قصيدته من كلماتها وموسيقاها وفنونها المختلفة أن يعبر عن أقوى مشاعره العميقة فرديا واجتماعيا وبالتالي عن مفهوم صادق لحياته الإنسانية. وفي هذه القصيدة تلتقي الشعور الفردي بالشعور الجماعي في أغراض قصيدته. وخصوصا جماعة الشعراء في عصره التقاء حيا مثيرا حتى لا يكاد هذا التمازج بين الفرد والجماعة أن يكون السمة السائدة في كل ما لدينا من إنتاج لشعراء هذه الحقبة.

وتمتلك هذه القصيدة أيضا المميزة الخاصة والجيدة. وهي كانت في معظمة القوي الإيحائية التي تنبع من تجارب صادقة عند الشاعر. فكانت هذه القصيدة تظهر من التجربة الشعرية الحقيقة لأنها يستغرق فيها هذا الشاعر لينقل إلينا من خلالها أدق ما يحيط به من أحداث العالم الخارجي وما يجري في الحياة من ألوان الصراع التي تتمثل في نفسه أو في

الفرد أو في الجماعة الموجودة في عصره وهذه جلية في هذه القصيدة. ولا أنسى كذلك إذا تأملت هذه القصيدة من جانب آخر أجد إنما هي تعتمد تصوراتها الفنية على نوع غايته التصور للمرئيات والمسموعات من أحوال نفسه ومن حوله ومجتمعه ولا تتجاوز هذه الغاية إلى ما هو أبعد منها.

فهذه هي ما أستطيع دراسته وتحليله عن هذه القصيدة من أساليبها التي يطرقها هذا الشاعر في عاطفته وفكرته وتعبيره في قصيدته التى هي مرآة مجتمعه. اللهم أستطيع أن أفهمها كيفما كان الشاعر في إنشادها حتى أعلم ما ضمنته القصيدة من القضية المحكمة عنده أو على الأقل أستطيع أن أثبت موقفي عليها.

و. الخاتمة

بعد الجولة السريعة حول كعب بن زهير وقصيدته بانت سعاد وصلت أخيرا إلى أن فيها قصة رائعة للحالة النفسية العميقة للشاعر وهي تصدر من التجربة الدينية والشعرية الفنية التي تغير فلسفة حياة الشاعر من الجاهلية إلى الإسلام فيعبرها بشكل القصيدة هذه فكانت هذه القصيدة تنبعث من الانفعالات النبيلة والفكرة القويمة فيعبرها الشاعر بالشكل الفني الممتاز الجليل حتى صارت قصيدة رائعة عالية خالدة سليمة المعاني والقضايا والشكل.

المصادر

ابن الأثير عز الدين، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، المجلد الأول والرابع، مصر: دار الشعب.

ابن عقيل، *شرحه على ألفية ابن مالك*، سورابايا: دار الطباعة الإسلامية.

ابن هشام، *السيرة النبوية*، القسم الأول والثاني، مصر: مصطفى الباب الحلبي وأولاده، ١٩٥٥.

الإسكندري الشيخ أحمد والشيخ مصطفى عناني، *الوسيط في الأدب العربي وتاريخه*، مصر: دار المعارف، ١٩١٦.

الاصفهاني أبو الفرج، *كتاب الأغاني*، الجزء السابع عشر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

برجار بيترل وتومس لوكمان، *تفسير المجتمع على الواقعي*، جاكرتا: لجنة البحوث للتربية والإعلان والاقتصاد والمجتمع، ١٩٩٠.

البغدادي عبد القادر بن عمر، *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، الجزء الثاني، مصر: دار الكتب العربي، ١٩٦٧.

الجر خليل، *لاروس المعجم العربي الحديث*، الفرنسي: باريس،١٩٧٣، ص. ٩٦.

حسين طه، *في الأدب الجاهلي*، مصر: دار المعارف ،

زيدان جرجي، *تاريخ آداب اللغة العربية*، الجزء الأول، مصر: دار الهلال.

السكري أبو سعيد الحسن، *شرح ديوان كعب بن زهير*، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

شلبي أحمد جاب الله، *كيف تكتب بحثا أو رسالة*، مصر: مكتبة النهضة، ١٩٥٧.

الشايب أحمد، *أصول النقد الأدبي*، القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٦٤.

الصيفي إسماعيل مصطفى ومحمد حسن عبد الله، *النقد الأدبي والبلاغة*، كويت: وزارة التربية، ١٩٧٠.

ضيف شوقي، *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*، مصر: دار المعارف.

عبد الله محمد حسن، *مقدمة في النقد الأدبي*، كويت: دار البحوث العلمية.

عزيز فؤادي، *العروض والقوافي*، يوجياكرتا: كلية الآداب بالجامعة الإسلامية الحكومية سونن كاليجاكا، ١٩٨٣.

مبارك زكي، *المدائح النبوية في الأدب العربي*، مصر: دار الكاتب العربي للطباعة.

المرشدي محمد أحمد وأصحابه، *الأدب والنصوص والبلاغة*، مصر: جار المعارف.

مكرم ابن منظور بن محمد، *مختار الأغاني في الأخبار والتهاني*، مصر: الدار المصرية، ١٩٦٦.

مألوف لويس، *المنجد الأبجدي*، بيروت: دار المشرك، ١٩٨٦.

النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، *نهاية الأدب في فنون الأدب*، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد.

الهاشمي السيد المرحوم أحمد، *جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب*. مصر:المكتب التجارية،١٣٨١ه/ ١٩٦٥م

الهاشمي السيد المرحوم أحمد، *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*. مصر:المكتب التجارية، ١٩٦٣

وجدي محمد فريد، *دائرة المعارف القرن العشرون*، لبنان:بيروت

وهبة مجدي وكامل المهندس، *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

الملاحق

الملحق الأول البيت الأول من القصيدة

١- بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

الملحق الثاني من بيت قصيدة: ٢-١٣

٢- وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

٣- هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول

٤- تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

٥- شجت بذى شبم من ماء محينة صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

٦- تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل

٧- فيالها خلة لو أنها صدقت بوعدها أولو أن النصح مقبول

٨- لكنها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبديل

٩- فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

١٠- وما تمسك بالعهد الذي زعمت إلا كما يمسك الماء الغرابيل

١١- فلا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأماني والأحلام تضليل

١٢- كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

١٣- أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل

الملحق الثالث من بيت قصيدة: ١٤-٣٤

١٤- أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

١٥- ولن يبلغها إلا عذافرة لها على الأين إرقال وتبغيل

١٦- من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

١٧- ترى الغيوب بعيني مفرد لهق إذا توقدت الحزان والميل

١٨- ضخم مقلدها فعم مقيدها في خلقها عن بنات الفحل تفضيل

١٩- غلباء وجناء علكوم مذكرة في دفها سعة قدامها ميل

٢٠- وجلدها من أطوم ما يؤيسه طلح بضاحية المتنين مهزول[٦١]

٦١ البيت رقم ١٩ و٢٠ عند رواية السكري في كتابه: *في شرح ديوان كعب بن زهير*، ص. ١٠ إسقاط هذين البيتين.

٢١- حرف أخوها أبوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل
٢٢- يمشى القراد عليها ثم يزلقه منها لبان وأقراب زهاليل
٢٣- عيرانة قذفت بالنحض عن عرض مرفقها عن بنات الزور
مقتول
٢٤- كأنما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللحيين برطيل
٢٥- تمر مثل عسيب النحل ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليل
٢٦- قنواء في حريتها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيل
٢٧- تخدى على يسرات وهي لاحقة ذوابل مسهن الأرض تحليل
٢٨- ثمر العجايات يتركن الحصى زيما لم يقهن رؤوس الأكم تنعيل
٢٩- كأن أوب ذراعيها وقد عرقت وقد تلفع بالقور المسافيل
٣٠- يوما يظل به الحرباء مصطخدا كأن ضاحيه بالشمس مملول
٣١- وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ورق الجنادب يركضن الحصا
قيلوا
٣٢- شد النهار ذراعا عيطل نصف قامت فجاوبها نكد مثاكيل
٣٣- نواحة رخوة الضبعين ليس لها لما نعى بكرها الناعون معقول
٣٤- تفرى اللبان بكفيها ومدرعها مشقق عن تراقيها رعابيل
الملحق الرابع من بيت قصيدة: ٣٥-٣٩
٣٥- تسعى الغواة جنابيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
٣٦- وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول
٣٧- فقلت خلوا سبيلي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمان مفعول
٣٨- كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
٣٩- نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

الملحق الخامس من بيت قصيدة: ٤٠-٥٠
٤٠- مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعظ وتفصيل
٤١- لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل
٤٢- لقد أقوم مقاما لو يقوم به أر واسمع ما لو يسمع الفيل
٤٣- لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بأذن الله تنويل
٤٤- حتى وضعت يميني ما أنازعه في كف ذي نقمات قيله القيل

٤٥- فلهو أخوف عندي إذ أكلمه وقيل إنك منسوب ومسؤول
٤٦- من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثر غيل دونه غيل
٤٧- يغدو فيلهم ضرغامين عيشهما لحم من الناس مغفور خراديل
٤٨- إذا يساور قرنا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مغلول
٤٩- منه تظل سباع الجو نافرة ولا تمشي بواديه الأراجيل
٥٠- ولا يزال بواديه أخو ثقة مضرج البز والدرسان مأكول

الملحق السادس من بيت قصيدة: ٥١-٥٨

٥١- إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
٥٢- في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
٥٣- زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
٥٤- شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل
٥٦- بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول
٥٦- ليسو مفاريح إن نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
٥٧- يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل
٥٨- لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل